



العاشرة مجلة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند



قسم العربية، كلية الجامعة، تروننترم، كيرلا، الهند، 695034

أصل اللغة والألفاظ

محمد إسماعيل إبراهيم المجددي

مدرس العربية، المدرسة الثانوية العالية، كرون ببيل، كدفالي، كالكوت، كيرالا

أصل اللغة ونشأتها

يقول ابن جني في المزهر: إن بعضهم ذهب إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخりر الماء وشحيخ الحمار ونعيق الغراب وصهيل الخيل وتربيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد^١ ، وأضاف القول: وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل. تتعلق اللغة بالمعنى والروح^٢ لأنها وسيلة لإظهار العاطفة. ولكن العلماء يصفون أنها موهب ربانية أنعم الله بها الإنسان لاتصالات المعلومات من واحد إلى آخر ومنهم رولند جيمس وستام جيمس. ويشرح العالم الأفرينجي موبيرتى "إن الأقدمين قبل مصدر اللغة يستعملون الإيماء والإشارات للاتصالات. وكانوا يستعملون اللغة لاحتاجاتهم الجسمية ونموا آلة لتنمية أفكارهم. وهكذا أصدرت بعض القوانيين عن اللغة مثل قانون باو واو (bow wow theory) وقانون دونج (ding dong theory) وقانون فو فو (pooh-pooh theory) وقانون يوهو هو (yoheave-ho theory) وقانون هاها (ha ha theory) وغيرها. وهم يزعمون أن اللغة أصدرتها من تقليد أصوات الحيوانات المختلفة ولكن العالم لم يقرر هذه الإدعاءات. ولا نجد للغة مبدأ منحصر ولكن نرى للصورة الخطية من اللغة القديمة خمسة آلاف من السنوات تقريباً. إن علماء اللغة المحدثين قد أخرجوا البحث في أصل اللغة والألفاظها الأولى من مباحث علم اللغة كسائر المباحث التي هدفها معرفة بداية الحياة الإنسانية والاجتماعية التي أصبح البحث فيها داخلاً في نطاق الفلسفة أكثر من أن يكون من اختصاص العلم. وكل شيء من الأشياء الحسية والمعنوية أسماء. فكل لفظ أطلق على معنى من المعاني فهو اسم له. ونجد على أن كل لغة حية تولد ألفاظاً جديدة للتعبير عن المعاني الجديدة وكل منها طريقة خاصة بها في توليد الألفاظ واستحداث الكلمات بطريق الاشتراق أو النحت أو غيرهما من الأصول والألفاظ الموجودة عندها. ويفسر عن هذه صاحب فقه اللغة وخصائص العربية^٣ "إن الكلمات العربية مثل سيارة ومحرك ومواطن ولنجد أنها تصدر من سار وحرك ووطن للدلالة على هذه المعاني وكيف نشأت هذه الألفاظ لأول مرة"^٤. ولنجد على أن أصلها من الغيبيات (metaphysics) والحق أن نشأة اللغة الأولى مغيبة عن جميع البدايات.

توليد الألفاظ:

إن الإنسان لا يزال يكتشف أو يصنع أشياء جديدة ويحتاج إلى ألفاظ جديدة تدل هذه الأشياء والمعاني الجديدة. وينشأ مفردات جديدة لمعرفة الأشياء الجديدة هذه ضرورية العقل والفكر لإثبات الأشياء بين الأمم. "فالعرب قديماً سمو السماء بصفة السمو والعلو وسهل من الأرض لسهولة السير فيه وبالبادية لصفة الظهور والوضوح والمرأة لشعور المرأة فيه بالسکينة والسفر لكشفه عن صفة الإنسان أو لاكتشاف آفاق الكون أمام المسافر^٥. ويعتني كثيراً من علماء اللغة عن مبدئها على أن أكثرها اللغة من أصوات الطبيعي. ولكن لم نجد هنا على تقادم العهد وتتطاول الزمن حتى تجاوزت علة التسمية للأشياء. ونرى أن الكلمة ليست تعريفاً للشيء ولا تحديداً لكنه ولا وصفاً محظياً بجملته وأجزائه.

^١ المزهر، ص. ١٤، ١٥

^٢ علم اللغة الاجتماعية، الدكتورة اوشا نمبوريداد، ص. ١

^٣ محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص. ١٨٦

^٤ فقه اللغة وخصائص العربية، ص ١٩١

حياة الألفاظ:

فلكل كلمة حياة وتاريخ ، لها ولادة قد يجهل تاريخيا ، ولاسيما إذا كانت قديمة، ولكلمة بيئة تعيش فيها. فقد تكون بدوية الببيئة أو حضرية. وقد تعيش وتزدهر في بيئة معينة لأن يستعملها الأدباء أو الرياضيون أو الأطباء أو الصوفية أو الفقهاء أو أصحاب المهن والحرف أو العامة. وقد تنتقل استعمالها من بيئة إلى بيئة ومن بلد إلى بلد.

معاني الألفاظ وتطورها:

وجدنا أن كل لفظ من الألفاظ يشتمل معنى خاصة حسب لفظها أو وقت اختيارها. وكل شيء من الكائنات يتبدل ويحول فتتغير من ناحية شكلها وبناتها. كما يتغير حروفها وأصواتها أو صيغها وبنائها أو من ناحية معناها. فقد تتنقل الكلمة من معنى إلى آخر أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديدا دون أن تترك الأول. وتتعدد بذلك المعاني التي تدل عليها ويستعمل في أي واحد منها على حب الأحوال والمقامات. ويقع هذا التبديل على مر الأيام وتقلبات العصور ونسميه هنا الحال تطورا. "إن كلمة طعن كانت تستعمل للضرب بالرمح ثم استعملت في علم الحديث والرواية فيقال فلان مطعون في روايته. ثم استعملت في العصر الحديث بمعنى قضائي خاص كالطعن في الداعوي والانتخابات. وبقيت هذه المعاني كلها ملزمة للكلمة ويعين أحدها سياق الكلام". وكلمة "السلوك" فهي اصطلاح عند الصوفية واصطلاح حديث في علم النفس واصطلاح مدرسي يفيد الدلالة على أخلاق التلميذ. فألفاظ الإيمان والتفاق والفسق والصلة والصوم والزكاة والجهاد والتوبة والكفاره والتقوى والدنيا والآخرة والحلال والحرام وكثير غيرها ظهرت بمعانيها الجديدة بظهور الإسلام وعرف كل مذهب اجتماعي في عصرنا بألفاظ خاصة به للتعبير عن مفاهيمه الخاصة الجديدة. ومن أسباب تبديل معاني الألفاظ تأثير اللغات الأجنبية بإشراب الكلمة العربية. "فالأسباب التاريخية الاجتماعية والنفسية تؤثر في تبديل الألفاظ الدالة على المعاني كما أثرت في تبديل معاني الألفاظ".^١

الفرق بين اللغة الفصحى واللهجات:

اللغة الفصحى هي الكلمة المكتوبة في أي لغة كان ويستعملها الإنسان في الكتابة والخطابة كثيرا ولكن الألفاظ التي يستعملها الإنسان لتبادل الاستعلامات من فرد إلى فرد آخر باللغة اللهجة أو العامة. ووقد تغيرات تاريخية وتركمبية للأصوات. النظام الصوتي يستقر منذ الطفولة ويستمر طول الحياة، فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته، ولكن النظام الصRFي ثابت أيضا. إن استقراره يتطلب وقتاً أطول. يستعمل مصطلح لهجة الدلالة على لغة إحدى المدن أو الأقطار. فيقول الإنسان لهجة العراق ولهمزة اليمن ولهمزة الهند. "مصطلح اللغة إذن يراد به لهجة قبيلة ما عند اللغويين القدامى ومصطلح اللهجة يراد به لغة إحدى المدن أو أحد الأمصار عند اللغويين المحدثين"^٢. يطلق حرف القاف مع تغيرات واضحة في أماكن مختلفة بما تأثرت أصوات المحلية^٣ وبعض الناس من نواحي الخليج العربي يطلقون "القبلة" جلة. وفي مدينة الرياض مع الدال والزاي مثل قولهم دزلة للقبلة^٤، وفي السودان وجنوب العراق تحول إلى الغين مثل لغاء، غناة ويدرك بدلا من لقاء وقاته ويقدر وغيرها. وفي اللهجة المصرية قلت كلمتان فيهما القاف غينا. ويستعمل "يدرك" ليقدر وزغزغ بمعنى "زفرق" وتطورت القاف كافا في نطق الفلسطينيين 'في المدن فهم يقولون كاف في قال وبرتكال في

^١ محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص ٢٠٨^٢ نفس المرجع، ص ٢١٧^٣ نفس المرجع، ص ١٤٤^٤ نفس المرجع، ص ١٠

برتقال. وضع اللغويون بعض القوانين على تغيرات الصوتية. وهو يعرف باسم "القوانين الصوتية"^١ والقوانين الصوتية تعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة. انه محدود بزمان معين، انه قد ينتهي اثره بعد فترة من الزمن.

قوانين التغيرات:

وضع اللغويون قوانين مختصة للتغيرات التركيبية للأصوات. بما قانون المماثلة وقانون المخالففة ويعتبر بالقانون المماثلة اقتراب الأحرف في المخارج الصوتية. ومن الأحرف التقارب في المخارج "ال DAL " والطاء والتاء والذال والظاء والثاء والهمزة والهاء والميم والنون وغيرها^٢. ولكن القانون المخالففة وإنه يعتمد إلى صوتين متماثلين تماماً في كلمة من الكلمات. فيغير أحدهما إلى صوت آخر وهي اللام والميم والنون. وهكذا تطورت كلمة فاين بعد سقوط الهمز منها إلى فين بدلاً من فين وفي بعض اللهجات وبين المتطرورة من وين بعد سقوط الهمز من وأين وبعض أهالي مصر ينطقون فان بدلاً من فين^٣. إن العربية الفصحى، كما نعرف، تفتح فعل المضارعة في الثلاثي في نحو يكتب، ويفتح ويضرب ويقول وبيع ويرمي وغير ذلك على حين نرى كثيراً من اللهجات الحية المعاصرة في البلاد العربية المختلفة تكسر حرف المضارعة في هذه الأمثلة وأشباهها^٤. وهكذا يكسر في اللهجات العربية الحديثة في اللغات السامية في لغة التخاطب اليومية مثل مين يقرأ ومين يسمع؟^٥. وكانت علم اللغة عند العرب بتدوين مفردات اللغة وجمعها. وغايتها الأهمية هي فهم القرآن وشرح ألفاظه. ظهرت مؤلفات كثيرة في عناوين مختصة مثل كتاب الفهرست لابن النديم، وأنشوا كتاباً من الألفاظ المضمون كتاب خلق الإنسان والخيل والإبل والأنواع والنبات والشجر والوحش والقمر والسلام.

الأصوات اللغوية:

ولكل لغة أصوات خاصة يخرج من مخارجها المختصة. العرب هم أول من أفرد هذا الموضوع بالبحث وذلك لضبط القرآن وأطلقوا عليه اسم علم التجويد. وبعضها تخرج من اللسان وبعضها من الحلق وبعضها عن الشفة واللسان. يحدث الصوت باندفاع الهواء من الرئتين ومروره بالقصبتين وتحريكه الحال التي يحدث الصوت باهتزازها. ثم يمر الهواء بتجويف الحلق ثم بتجويف الفم وقد يمر من الخياشيم أو لا يمر. ونجد الاختلافات في المدود ومثلها بين اللغات المختلفة.

المصادر والمراجع

١. المزهر، ابن جني
٢. علم اللغة الاجتماعية، الدكتورة اوشا نمبوري باد
٣. فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك
٤. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمن
٥. التطور اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب
٦. بحوث ومقالات في اللغة، الدكتور رمضان عبد التواب

^١ التطور اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، ص ١٣

^٢ نفس المرجع، ص ٣٨

^٣ التطور اللغوي، رمضان عبد التواب، ص ٥١

^٤ بحوث ومقالات في اللغة، ٢٦٠

^٥ نفس المرجع، ص ٢٦٧